العفاف

قصة واقعية

بقلم

عبد اللطيف ابو السعود الشريف

حقوق الطبع محفوظة

١٣٥١ — ١٩٣٣

obeikandl.com

الاهداء

الى كل عذراء طاهرة نزيهة الهوى لهذه القصة؟

عبد اللطيف ابو السعود الشريف

obeikandl.com

بين البؤس والعفاف

امتحنت فتاة بموت أبويها ، وليس فى أسرتها من يجد فى نفسه الوازع الذى يؤهله للعطف عليها ، ولها أخوة قساة ، لا يعرفون العرض ، ولا يفهمون معنى الحياة ، رحلوا عنها الى بلاد نائية فى طلب الرزق ، وتركوها ولا عائل لها الا نفسها وماذا تصنع فتاة ريفية ؟ سوى أن تستخدم فى بعض المزارع كعاملة بسيطة ، لا يمكنها أن تخدم فى اليوم الواحد بأكثر من حاجتها أعنى طعامها وشرابها فهى تعيش مكدودة إذن ، حافية القدم — عارية الجسد والرأس تقريباً

نزل بها القضاء يوماً ما فى مزرعة صغيرة لشاب مأفون ممن لا دين لهم ولا خلاق . مع اعتقاده فى نفسه الجرأة والبسالة بالرغم مما عليه أسرته من الفاقه والاحتياج ، ولكن حب الظهور جعله يحاول المسير فى صف الوجهاء والأثرياء

وتلك نكبة سارية فى جميع عناصر الامة لم تتناولها أيدى الكتاب المحترمين

فرآها فاستملحها فأعجبته صورتها وشعرها الأصفر القصير ، وشاهد فى عينيها تلك الشارة التى يعبر عنها بالحور ، فجن بها وافتتن ، وكاد أن يعرف السبيل إلى أهلها ليأخذها منهم مع النزاهة

والطير ولكن نفسه الوضيعة جعلته يغريها بما يناسب عقلها ومداركها من الأماني اللذيذه ، وأطلق عليها لفظ (خطيبته) وقدم اليها ضعف أجرها

وبالرغم من ذلك لم يرض قلبها عن هذا الشاب ولم تطمئن نفسها إليه — فحاول أن يستلين قناتها ليقودها إلى منزله كضيف تحبب رعايته ومواساته فلم ترض بذلك وفضلت أن تنام فوق الغبراء وتلتحف السماء عن كل ما ستراه فى بيته من المظاهر الكاذبة والعظمة المزخرفة

فاستخدمها ثلاثة أيام وضم أجرها إليه ، فأبت نفسها أن تقف له موقف المطالب

فبعث إليها رسلا يغرونها ويعملون على تكوين الجاذبية بينه وبينها ، فما وجدوا إلى قلبها سبيلا — لأنها كانت تتفرس وجوه الناس فان وجدت فى أحدهم ريبة مالت عنه إلى غيره حتى كتب لها أن تنزل مزرعة لرجل يمت بصلة إلى الشاب فأنست به وقصت عليه قصتها وما تنكر فى نفسها على ذلك الفتى وبينما هى تحادثه إذ أقبل عليهم الشاب — وبيده بندقة كأنه يريد أن يصوبها إلى صدر الفتاة ، فهرعت قائله — النجدة — النجدة الغوث — الغوث — غير أنها هوت صريعة على الارض

ما أضعف المرأة — هوت ولكن الجبن دفع بالشاب إلى

أن يصل موضع العفاف منها — إلا أنها قامت قبل أن يصلها بسوء — وجرت حتى وجدت من تستنجد به ، فآواها رجل إلى داره واستخدمها فى طهى الأطعمة وكان يرشدها فى بعض الأحايين إلى ما يتبع عند الطبقات العالية ، وعلمها ضروباً شتى استطاعت بعدها أن تكون يوماً ما صناع اليد بحيث يمكنها أن تعيش من عمل يديها

فالتحقت بقصر من قصور العظماء وكادت تغبط نفسها على هذه النعمة وكانت تقول هذا جزاء الصابرين

وذات ليلة طرق بابها فى هدأة من الليل ابن سيدها ثملا مخموراً . فقال لها فى ثوب من الهدوء : أنا ضيفك الليلة ، فلم تفهم مرماه ، إلا أنها ابتسمت وقالت : لست أهلا لذلك ! !

فقال : أنت فى نظرى ملك طاهر — بل ربما كنت أضوأ من الكوكب وأينع من الزهرة !

فحدثتها نفسها بما انطوت عليه سريرته وفطنت إلى غرضه إلا أنها عمدت إلى حيلة استطاعت بها الخلاص منه

ونامت غير مطمئنة حتى الصباح — وفيه سألت سيدها أن يسمح لها بالذهاب إلى أهلها واعتذرت ببلوغها السن الذى يجب معه الاعتكاف

فلم يرض سيدها — لأنه كان خالى الذهن مما مثل ابنه معها إلا أنه قال لها . . هنا خير لك يا بنية !

فقالت : خير ! ! ولكن لمسقط الرأس حقوق يجب أن أحتفظ بها

وقبيل سفرها حضر سيدها الصغير وقدم اليها عشرة دنانير فقبلتها راضية وقالت : أشكرك سيدى . ثم ودعها — وفى طريقها جلس فى المقعد المجاور لها شاب وسيم الطلعة ، معتدل القامة . باسم الثغر وضاء الجبين

فجلست تحدثه عما صادفت فى حياتها من المحن والملمات وما لقيت فى الدهر من متاعب وأرزاء

فقال لها دعى عنك هذا ، فما أنا ممن يخدعهم التمويه ، وما اعتقدت مرة بطهارة عذارى هذا الجيل سيما الخادمات

***

فقالت : كأنى بك فاسد الضمير ، خبيث الطوية . وظلت صامتة لا تتكلم حتى رأت عامل القطار فطلبت اليه معونتها على انتشالها من وسطها

فقال لها بكل أدب وحفاوة : تفضلى سيدتى بالجلوس فى حجرتى الخاصة التى بها متاعى وملابسى فشكرت له عطفه . وتبعته حتى الحجرة التى يقول عنها إنها خاصة به

فأجلسها وقد انصرف إلى عمله : وما هى الا فترة قصيرة حتى عاد اليها عارى الرأس ممسكا قبعته بيد ولفافة التبغ فى اليد

الاخرى . فوجدها جالسة جلسة المكتئب الحزين . فحياها فردت تحيته . فأراد أن يسترسل معها فى الحديث حيث قال لها إن القطار سيصل بنا فى الساعة الثالثة تماماً

فقالت : لا أدرى متى تكون الساعة الثالثة من الليل ؟ ! لأنى تربيت بين قوم لا يفرقون بين الليل والنهار إلا بالسواد والبياض

فقال : أنت فتاة على ما أرى حضرية رقيقة المزاج

فقالت : وما شأن الحضارة فيما أنتم عليه يا شبان هذا العصر من الخروج عن الحد اللائق بالأدب ثم تتهمون المرأة بعد ذلك بأنها العامل القوى فى فساد الأخلاق « على انى فى حاجة الى النوم فاخرج كى أستريح ولا تندم على منة دفعتك المروءة الى القيام بها »

فقال لها : كل بغيتى أن أحصل على أجر المقعد الذى أنت جالسة به

فقالت : وهل بقى على أجر بعد ذلك ؟

فقال . . . . . نعم . بقى أن تدفعى قدراً يكفل لك الراحة والسلامة واعتذر اليها بعد أن قدمت اليه ما بقى بالحاجة

فتركها فنامت قائلة : الحمد لله قد وجدت المكان المنفرد الذى لا يشاركنى فيه أحد . وكأنها تقول

وأرى الوحدة خيرا للفتى
من جليس السوء فانهض ان قعد

لم يزرها الكرى . بل عندما بدأت تكتحل عيناها بالنعاس طرق بابها رجل من الأثرياء وهو رجل من العظماء الاصطلاحيين

فأزعجها ذلك لأنها سمعت من عامل القطار أن القدر الذى دفعته اليه زائداً على أجرها يكفل لها بقاءها على انفراد

فلما رأته عادت الى مخدعها غير ناظرة اليه . فقال لها ذلك الثرى : مساء الخير ياسيدة !

فقالت لا أجد معنى لالقاء هذه التحية على مثلى من رجل عظيم مثلك . ولا أدرى كيف اجترأت على أن تضم معك فى حجرة واحدة فتاة لا تربطك بها أى رابطة

فقال لها : هدئى روعك . فلقد تطور العالم الى حد أن المرأة سارت مع الرجل فى صف واحد وكادت تطالب بحقها فى المجلس النيابى . بالرغم من ضعف ارادتها . ووهن عزيمتها . على أنه لا يريبك منى وجودى معك فى مكان واحد . وأنا ياسيدتى أرى أن المرأة متى خالطت الرجل ثم قويت على نفسها وكبحت جماحها كانت أطهر فى نظرى من أى فتاة أخرى وعلى أثر ذلك غشيته سكرة من النوم فنام نوماً عميقاً أشغله عن النظر اليها

فظلت ساهرة حتى بلغت غايتها من السفر وذلك بعد لأى وتعب شديدين

فلما لحقتها كبرى أخواتها قالت : لقد دنست شرف أسرتك بحيث أصبحنا خافضى الرءوس فلا نستطيع أن نشمخ بين القبائل كما هو شأننا من قبل

فأجابتها فى عبرة وبكاء قائلة . . . إننى حافظت على كل شىء فلم أدنس عرضى بشىء كما تزعمين ، لأنى لازلت محتفظة بتلك الجملة التى كانت والدتى تقولها لى (ان أغلى ما تقدمه العذراء الى زوجها عفافها وطهارتها)

فلم تزلف بى قدمى الى هوة لاترضى الكرامة والقداسة . فهدئى نفسك ، ولا تثيرى ثائرة ضد شخصك . ويجب أن نعتقدى بأن الفتاة النزيهة البريئة لايريبها ولا ينافى قداستها أن تنزل ميدان العمل ما دام شعارها الوقار والحياء . وما لجأت الى العمل الا بعد أن عضنى الدهر عضة قوية ذهبت بأبوى فحرمتنى عطف أخوتى ، بل وعطف الناس جميعاً

ولست أدرى كيف تفهمين أن المرأة العاملة خارجة عن حدود اللياقة والكياسة ، مع أن الفتيات المحترفات من الغربيات يعتبرن فى نظر أهليهن وذوى قرابتهن اعتباراً يفوق الرجل العاطل ! بل ربما رفع الأسرة عندهم وجود عدد كبير من الفتيات العاملات ، ويطلق عليهن فى أغلب الأحايين (الناهضات)

وقد لا يضير الرجل أن يرى ابنته فى مصنع من المصانع تحترف لقوتها ، وتعمل على نفع أسرتها ، ويعتبر ذلك عندهم سمو لمستوى الأمة بأسرها !!

وكثيراً ما عرضوا بأننا أمة تهمل المرأة وتحتقرها وتعودها الكسل ، لأنهم يرون أن اقتصارها على عمل البيت أمر يهين كرامتها ، ويحقر مستواها ، فهى عندهم شريكة الرجل من كل وجه !

بخلاف مانحن عليه من التهكم بالمرأة اذا هى احترفت بشىء تصون به كرامتها وتحفظ به ماء وجهها من أن يذهب ضحية المسألة . . . ولم تكن يا أختاه هذه جنايتى الناشئة من تصرفى وانما القدر وحده هو الذى حدا بى إلى مثل ذلك . فلو اننى وجدت ما يقوم ببعض حاجتى أو ما أسد به رمقى لما التجأت إلى ما يحملك إلى إساءة الظن بى . ثم تتحدين عفافى باتهامى باننى فتاة خليعة لا دين لى اتمسك به ، ولا عرض عندى أصونه مع اننى معتقدة من غير مبالغة ولا مغالاة أن مستواى الخلقى ان لم يكن مثلك فى الطهارة والصيانة . فقد أفضل عليك بالمحافظة على نفسى فى الأوساط التى لا يصان العفاف فيها إلا برد جماح الهوى والغواية عما من شأنه اثارة العاطفة وهياج الوجدان ، فكم أغفلت عن متهتك يريد السوء ومستهتر يبدى غير الفضيلة !

obeikandi.com

كوني على ثقة من أني لا أزال فاضلة نقية . ولا يدور بخلدك أو يخالج ضميرك أنني أرجو منك التستر على ذنب اقترفته أو جرم ارتكبته . فأنا بعيدة جداً عما يشين العرض أو يهتك الحجاب . كل مافي الأمر انني ابتأست ففضلت العمل على سؤال الناس المعونة والعطاء ولم يكن لي رأي في بادئ الامر . فقد وجدت نفسي ضالة لا أعرف لي مكاناً آوي اليه أو مستقراً أصون فيه نفسي ، أو قلباً رحيماً يعينني على شدتي ويأخذ بيدي من وهدة البؤس والفاقة . . .

فان كنت ولا بد عاتبة فاعتبي على القضاء الذي كتب لي ذلك . وأظنك لا تملكين العتب لأني واثقة بأن الله لم يكتب لي غير ما كتبه للفاتنات من النساء

***

فقاطعتها أختها قائلة : كفى تمويها وتضليلا بي . وستعلمين غداً نتيجة هذا التصرف الذي يحط بالكرامة ويدوس العفاف واعلمي أن تقاليدنا القومية تقضي بأن تموت الفتاة في عقر دارها وذلك أهون من ولوجها غير دار أبويها مهما لاقت في الدهر من مصاعب ومتاعب أو سولت لها نفسها أنها ستجد في غربتها من صنوف الترف ودواعي الراحة ما لم يره أحد من العالمين .

وأما تلك الآراء الجديدة التي لا عهد لي بسماع مثلها . وما كنت أتوهم أنك ستصارحيني بشيء منها فلا تنطبق تماما

على عقائدنا وضمائرنا . وانى لمحذرة اياك من أن تكون هذه إجابتك اذا سئلت عن تطورك من أحد أقربائك المتعصبين الذين يميلون الى قول القائل

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

فقالت فى لوعة وأسى وعبرة لا يعلم الا الله من أين نبعت :

ومتى صدع شرفى حتى يحتاج الى اراقة الدم ؟ انى ما فعلت شيئا أستحق عليه ذلك سوى أننى أنقذت حياتى من مخالب الجوع . والمرء فى هذه الحياة مأمور بالتفكير فيما يسد حاجته ويشفى غلته ، وهو مسؤول أمام الله اذا هو قصر عن السعى وراء الرزق متى كان قادراً . ولو أنى بقيت بجوارك مسكينة بائسة لقتلنى الهم والجوع والابتئاس ولكنت كمن عمل على قتل نفسه بيده . وفتاة مثلى لا سند لها ولا جاه رماها الدهر بسهم صائب فاحتملته ثم أمكنها معالجة ذلك الجرح بالصبر والجلد وكان عاقبة أمرها أن رجعت شريفة كما خرجت

قومى اركعى واسجدى واعبدى ربك الذى حفظ لك عرضاً شريفاً هو كل مايهمك من شرف أسرتك وليس المالك إلا الله والضمير . إنى خشيت الله رب العالمين كثيراً . ولا بد أنك موقنة بذلك ولكنك نهجت نهج « ولكن ليطمئن قلبى » . . لا يعكر عليك صفو حياتك تفكيرك فى أى شىء

مما يتعلق بى . فأنا المسؤولة الأولى عن عرضى وأنت الثانية وكفى . .

وأقامت بين أهليها وذويها غريبة كما كانت شأنها من قبل — الا أنها أسوأ حالا لتسلط تيار الأفكار على خيالها . رغما من وجود بعض المال الذى يفى بحاجتها سنة أو بعض سنة .

وقد ظلت تنتظر ما أنذرتها به أختها من مطاردة أهلها لها. وغضبهم عليها وعدم رضائهم عنها . لأنها خرجت عليهم فانتحلت لنفسها رأيا لا يتفق وعاداتهم . ولهذا اشتد اضطرابها وكثرت هواجسها واوهامها . وقد انقلب ذلك الوجه النضر بصورة ذابلة الا انه لا يخلو من مسحة بسيطة من الجمال كما يحتفظ الطل بآثار البناء .

ولقد تغير الجسم النامى الخصب بجسم كساه النحول هزالا والهم سقما وضعفا . فاذا أبصرتها أبصرت فتاة بقى هيكلها . وغاض ماء الحسن الذى كان يترقرق فوق خديها ويلمع فى محياها

ولم تكن لتخاف الردى أو ترهب الموت ولكن كل ما كان يهمها أن يقال عنها انها فاسقة أو فاجرة

ولقد خلت بنفسها ليلة وأخذت تفكر فيما سيؤول اليه أمرها وحدثت نفسها بأحاديث شتى كأن تقول ما علتى اذا قيل لى لم هاجرت ؟

وبينما هى تسبح فى أفكارها وأوهامها إذ غشيها النعاس فأسلمت رأسها

وما هى الا سنة حتى سمعت صوتاً يشبه صوت أمها فسمعته فاذا هو . . . أى بنيتى . كم أنا حزينة لشقائك الذى تعانينه من غير مساعد ولا معين . إلا أننى فرحة لعفافك ونزاهتك وقداسة نفسك . فان قدر لك أن تعيشى طويلاً أو قصيراً فذلك وإلا فأنا أحوج ما أكون اليك عندى . وليس المترف فى الحياة الدنيا على ما به من النعيم والهناء مهما وصل الى المثل الأعلى فى الرفاهية والسعادة بالنسبة لنا إلا بائس معدم

فلو أن الله اختارك لجواره وأدناك منى وقربك إلى فسترين من الملاذ مالم يخطر بقلبك أو يمر بخيالك

ولا يمكننى أن أصف لك الحالة التى أنا فيها والقوم الذين أعيش معهم وصاحباتى اللواتى آنس بهن وأقضى معهن كل أوقاتى . بحيث أفتح عينى لا أرى إلا وجوهاً نيرة جميلة ولا كيف أعبر لك عن الحالة عندنا . انها تختلف اختلافاً واسعاً عن الحالة عندكم . اذ لا نفاق ولا رياء ولا حسد ولا بغضاء . ولا تفاخر بالحسب والنسب ولا تكاثر بالفضة والذهب ، فقد سوى الله بيننا جميعاً وألف بين قلوبنا بعد أن أراحنا من عناء الحياة الدنيا وأرضانا جميعاً فجعل الرحمة بيننا متبادلة والمحبة سائدة لذلك لا يطمع أحدنا فى نعيم صاحبه . فقد نزع ما فى صدورنا من غل فكنا اخواناً على سرر متقابلين . . فلا يؤسنك يا بنيتى ما أنت فيه من الشقاء والبأساء لأن حياتك مهما امتدت فانها لحظات لا بد من انتهائها ، وسويعات لا بد من انقضائها .

واحذرى أن تفكرى فى الخروج من الحياة بارادتك بدافع اليأس والجزع فأن فعلت ذلك فقد حرمت نفسك من السعادة التى أعدناها لك وأرجوها

فقالت : أرى الحياة يا أماه قاسية على . ضيقة فى نظرى لا فرجة فيها . وكأن شقاء العالم كله قد أضيف الى . فلا أخرج من هم الا لأتبوأ مقعداً آخر من الحزن والآلام . وإن عيشى اذا امتد الى أكثر من ذلك على ما أنا فيه من البؤس والعناء فانى لا أفهم الى أى نتيجة تصل حالتى فارحمينى يا أماه ومدى يدك الى لأكون قريبة منك فأنا أحوج ما أكون الى معونتك وحنانك

أماه . . أماه . . أماه . . .

وهنا طرق بابها أحد أعمامها فأيقظها . وهو رجل من أولئك الذين لا عمل لهم سوى سفك دماء البشر ليحصل على قوته من هذه الناحية . وبيده مدية يريد القضاء بها عليها . فقامت تستقبله وفى عينيها تلك الدموع التى كثيراً ما كانت تترقرق فيهما ، فلم يقع نظره عليها حتى ذعرت واضطربت لانها رأته بصورة لا عهد له بها من قبل ، فلما دنا منها ولت مدبرة وقالت هذا إفك مبين

وما فتئت تستغيثه قائلة : دمى برىء . إننى عذراء . وكأنها تلت عليه (واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت) فأحجم عمها عن فكرته ورجع عن عزيمته ، الا انها أنفت أن تعيش

بجوار أسرتها مهددة فخرجت خلسة الى سفح الجبل حيث لا أنيس غير الوحوش الضارية فرت فى طريقها بقبر امها فما وافته حتى خيل اليها أنها فى موجة من النور ، وكأن هاتفاً يصيح بها : الفار يافتاة ، فأخذت طريقها الى غار لايطرقه طارق ولا يمر به غير الضال

فقضت سبعة أيام منفردة كانت خلالها تقتات الحشائش ومايصادفها على وجه الارض ! حتى وافتها منيتها فلم تجد بجوارها من يغمض عينيها ويلقنها عقيدتها

وبعد يوم واحد مر بها أحد الأعراب الهائمين فى الجبال والوديان ، فلما عرف أنها ميتة حفر لها حفرة بطول قامتها وألقى عليها الثرى

وهكذا شاء القدر أن تقضى تلك الفتاة حياتها بين البؤس والعفاف ؟

تمت